موقف من يونس بن حبيب

للدكتور محمود حسني محمود

(الجامعة الاردنية)

- ١ -

هو (١) أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي البصري . يكاد اغلب الذين ترجموا له أن يتفقوا على انه واحد من الموالي العرب ، ولكنهم حاروا في من كان مولاه ، فقيل (٢) انهم بنو ضبة ؛ وقيل (٣) بنو ليث بن بكـــر ، وقيل (٤) بلال بن هرمي من بني ضبيعة بن بجالة . اما صاحب « معجم الادباء فقد راى انه ضبي نسبا صريحا ، ولكنه عاد وروى انه مولى بنـــي ليث ؛ قال (٥) : « ابو عبد الرحمن الضبي وقيل الليثي بالولاء » . وكان نسب يونس يحيّر ابا الحسن الخزاز الذي لم يستطع ان يتحقق من الامر ، فكان يقول (٦) : « لا ادري هو مولى ام لا » . وفي جميع الأحوال فإن يونس يبقى عربي الأصل . ولم يذهب احد الى انه غير ذلك سوى صاحب «مفاخر

---

١ ــ طبقات المفسرين : ج ٢ / ٣٨٥ . بغية الوعاة : ج ٢ / ٣٦٥ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

٢ ــ وفيات الاعيان : ج ٧/٢٤٤. الفهرست : ص ٧٩ . انباه الرواة : ج ٤/٦٨ .

٣ ــ وفيات الاعيان : ج ٧ / ٢٤٤ . معجم الادباء ج . ٢/٦٤ . الفهرست : ص ٧٩ .

٤ ــ وفيات الاعيان ج ٧ / ٢٤٤ .

٥ ــ ج ٢٠ / ٦٤ .

٦ ــ الفهرست : ص ٧٩ .

العجم » الذي ادعى (٧) أنه أعجمي الأصل ، مفتخرا بذلك ، توهما (٨) منه انه من أهل الجبل، بينما هو في الحقيقة من مواليد جبُّل (٩) : القرية الواقعة (١٠) بين النعمانية وواسط ، ولعل لفظ « جبل » هو الذي أوهمه انه من أهل الجبل .

وقد قدر الله ليونس أن يعيش عمرا مديدا ، اختلفت الروايات (١١) في تقديره ، وتراوح فيها بين ٧٨ سنة الى ١٠٢ من السنين ، ولكن الأغلب انه عاش ٨٨ عاما ، أو قريبا منها ، وأنه توفي سنة ١٨٢ هـ .

ويبدو انه فرَّغ حياته تماما من أجل العلم ، ولم تشغله شواغل الدنيا « فلم (١٢) يَتَسَرَّ ، ولم يتزوج » ، و « (١٣) لم تكن له همة الا طلب العلم، ومحادثة الرجال » ولعلّ عدم انشغاله بشيء غير العلم يَسَّر عليه جهدا في امتلاك حصيلته العلمية التي وصل اليها ، وأمكنه من الحفاظ عليها، حتى قيل فيه قولٌ ظريف: « (١٤) مثل يونس كمثل كوز ضيق الرأس ، لا يدخله

---

٧ ــ الفهرست : ص ٧٩ .

٨ ــ تاريخ الادب العربي (بروكلمان) : ج ٢ / ١٣٠ .

٩ ــ وفيات الاعيان ج ٧ / ٢٤٤ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

١٠ ــ معجم البلدان : ج ٢ / ١٠٢ . قال ياقوت : « بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي كانت مدينة واما الان فاني رأيتها مرارا وهي قرية كبيرة ، قال البحتري :

لئن اوحشتي جبُّل وخصاصها لما انستني واسط وقصورها » .

١١ ــ ولعل اصحها تلك التي وردت على لسان الجاحظ في حديثه للمبرد، وتفيد بان يونس توفي سنة ١٨٢ هـ وهو ابن ثمان وثمانين (مراتب النحويين ص ٢١ وانظر الحيوان ج ٥/ ٥٩١) . وهذه الرواية تتطابق مع ما ورد على لسان اسحٰق بن ابرٰهيم الموصلي في الفهرست ص ٧٩ .

اما في : البداية والنهاية : ج ١٠/١٨٤ . فقد ورد انه توفي عن ٧٨ سنة . وفي طبقات المفسرين ج ٢ / ٣٨٦ وبغية الوعاة : ج ٢ / ٣٦٥ توفي عن تسعين . وفي احدى روايات الانباء : ج ٤ / ٧١ انه جاوز المائة .

١٢ ــ انباه الرواة : ج ٤/٧١ . طبقات المفسرين : ج ٢/٣٨٦ . بغية الوعاة : ج ٢/٣٦٥.

١٣ ــ الفهرست : ص ٧٩ . وفيات الاعيان : ج ٧/٢٤٥ . انباه الرواة : ج ٤/٧١ .

١٤ ــ طبقات النحويين واللغويين : ص ٥١ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

شيء إلاّ بعسر ، فاذا دخله لم يخرج منه » أي لا ينسى . وبقي يونس يفيد من علمه الى أن (١٥) « تفرغ من الكِبَر »، إذ وصل عمراً لا احد يرجو أن يصل اليه ، فقد « (١٦) دخل المسجد يوما وهو يهادي بين اثنين من الكبر، فقال له رجل كان يتّهمه على مودته : بلغت ما أرى يا أبا عبد الرحمن ، قال : هو الذي ترى ، فلا بُلِّغْتَه » .

وكان يونس ذا نظرة تأملية ، وصاحب راي في بعض الجوانب الحياتية ، فكان يقول : « (١٧) ثلاثة والله اشتهي أن أُمكَّن من مناظرتهم يوم القيامة : آدم، عليه السلام، فاقول له : قد مكّنك الله من الجنة وحرّم عليك شجرة ، فقصدت لها حتى القيتنا في هذا المكروه ؟ . ويوسف، عليه السلام، اقول له : كنت بمصر ، وابوك عليه السلام بكنعان ، بينك وبينه عشر مراحل ، يبكي عليك ، لِمَ لم ترسل اليه : إني في عافية ، وتريحه مما كان فيه من الحزن ؟

وطلحة والزبير اقول لهما : عليّ بن ابي طالب، عليه السلام، بايعتماه بالمدينة ، وخلعتماه بالعراق ، لِمَ ؟ اي شيء أحدث ؟ »

وللشباب والاحباء عنده مكانة غالية حين يقول (١٨) :

شيئان لو بكت الدماءُ عليهما عيناي حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقّيهما شَرْخَ الشباب ومُرقَةَ الاحباب

وللعلم عنده مكانة لا تدانيها مكانة ، فكان يقول : « (١٩) إن علمك

---

١٥ ــ الفهرست : ص ٧٩ . انباه الرواة : ج ٤/٧١ .
١٦ ــ مراتب النحويين : ص ٢١ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .
١٧ ــ أخبار النحويين البصريين : ص ٢٩ .
١٨ ــ شذرات الذهب : ج ١/٣٠١ .
١٩ ــ الحيوان : ج ١/٦١ .

من روحك ، ومالك من بدنك ، فضعه منك بمكان الروح ، وضع مالـــك بمكان البدن » .

تثقّف يونس ثقافة واسعة تمثّل ثقافة عصره ؛ وكان متجليا في اكثر من علم واحد : فهو عالم بالأنساب ، يُضْرَب به المثل في الدراية بهذا العلم والتمكّن منه ، قال الجاحظ في حديثه عن الحمام : « (٢٠) ووصف الهذيل المازني مثنّى بن زهير وحفظه لأنساب الحمام ، فقال : « والله لهو انسب من سعيد بن المسيب وقتادة بن دِعامة للناس ، بل هو انسبُ من أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه ! لقد دخلت على رجل اعرف بالأمهات المنجبات من سُحَيم بن حفص ، واعرف بما دخَلَها من الهُجنة والإقراف من يونس بـــن حبيب » .

وهو قصّاص من اولئك الذين كان الناس يتحلّقون حولهم في المساجد ويستمعون الى ما يروونه من احاديث واخبار ، ويبدو أن الموضوع الـــذي كان يدور حوله القصّاص ــ كما يبدو من خلال ذكر (٢١) الجاحظ لهم ــ هو تفسير آيات القرآن الكريم ، فبرع يونس بين المفسرين ، (٢٢) وتُرجم له في طبقاتهم ، ولا سيما وقد الف كتابا اسماه « (٢٣) معاني القرآن » ، ولعل يونس في تاليفه هذا الكتـــاب هو الذي أوحى الى تلامذته : أبي

---

٢٠ ــ الحيوان : ج ٣/٢١٠ .

٢١ ــ انظر البيان والتبيين : ج ١ / ١٩٢ ــ ١٩٤ .

٢٢ ــ انظر : طبقات المفسرين : ج ٢ / ٣٨٥ ــ ٣٨٦ .

٢٣ ــ انظر : الفهرست : ص ٧٩ . وقد خلط صاحب معجم الادباء (ج ٢٠/٦٧) بين معاني القرآن و ((النوادر)) فذكره باسم ((معاني القرآن الكبير)) ((معاني القرآن الصغير)) مع ان كتاب المعاني كتاب واحد ، اما النوادر فالف فيها كتابين : الكبير والصغير كما سيرد فيما بعد .

عبيدة (٢٤) والكسائي (٢٥) والأخفش (٢٦) والفراء (٢٧) أن يسلكوا مسلكه ويؤلفوا كتبا في الموضوع نفسه تحمل اسم الكتاب الذي الفه . وله آراء (٢٨) تفسيرية تناقلتها الكتب بعده .

وهو ناقد أدبي مؤهل بكل متطلبات النقد ، كان «٢٩» عالما بالشعر، نافذ البصر في تمييز جيده من رديئه ، عارفا بطبقات شعراء العرب ، حافظا لأنسابهم » ، مرجعا لمن كان الأدب يشكل جزءا من تفكيرهم وهمومهم ؛ ندم (٣٠) عليه جعفر بن العباس من عند الخليفة المهدي وقال له : انا وأمير المؤمنين اختلفنا في هذا البيت :

والشيبُ ينهض في السواد كأنـــه ليل يصيـح بجانبيـــه نهـار

فما الليل والنهار ؟ فقال يونس : الليل ، الليل الذي تعـــرف والنهار . النهار الذي تعرف ، فقال جعفر : زعم المهدي ان الليل فـرخ الكروان ، والنهار فرخ الحبارى . فقال أبو عبيدة في البيت ما قالهيونس. والذي قاله المهدي معروف في الغريب من اللغة .

وكان الشعراء يذهبون اليه يستأنسون برايه ، قبل أن يذيعـــوا اشعارهم للناس ؛ حتى أن بعضهم كان يتخذ من رايه القول الفصـل ، فإما ان يظهر شعره واما أن يلقيه ولا يلتفت اليه ، قدم (٣١) عليه مروانبن

---

٢٤ ــ انظر انباه الرواة ج ٣ / ٢٥٦ .

٢٥ ــ انظر نزهة الالباء ص ٦٠ .

٢٦ ــ انظر انباه الرواة ج ٢/٤٢ .

٢٧ ــ انظر : نزهة الالباء ص ٨١ .

٢٨ ــ انظر : الحيوان ج ٥ / ٢٤٠ ج ٥ / ٢٩٥ ، وطبقات فحول الشعراء ص ٥٤ (مطبعة المدني ــ القاهرة ــ١٩٧٤) .

٢٩ ــ معجم الادباء ٢٠/٦٤ .

ــ وفيات الاعيان ٧/٢٤٧ .

٣١ ــ الموشح ص ٥٠ معجم الادباء ج ٢٠/٦٦ .

ابي حفصة ، وقال له : لقد قلتُ شعرا اعرضه عليك، فان كان جيداً اظهرته، وإن كان رديئا سترته ، وانشده :

طرقتـــك زائرة فحيّ خيالها

قال : فقال له : يا هذا ، اذهب فأظهر هذا الشعر ، فانت والله فيه اشعر من الاعشى ، يريد في قوله (٣٢) :

رحلت سمية غدوة اجمالها

فقال له مروان : قد سؤتني وسررتني ، فأما الذي سررتني به فلإرتضائك الشعر ، واما الذي سؤتني به فلتقديمك إياي على الاعشى ، قال : نعم ، إن الاعشى قال :

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها.

والطحال لا يدخل في شيء الا افسده ، وانت لم تقل ذاك .

وكان يستطيع ان يميز رواية الشعر صدقها من كذبها ؛ فقد روي (٣٣) لأبي عمرو بن العلاء ــ بحضور يونس وابي عبيدة ــ ان الوليد بن عبدالملك لامَ العجاج لقوله شعراً في عمر بن عبيد الله بن معمر افضل من ذلك الذي قاله فيه ، فقال يونس لأبي عبيدة بعد سماع الرواية : اتصدق بهذا ؟ ما كان من هذا شيء قط ، ولا كان الوليد يحسنه ، قال عمر بن شبة : ولا احسب يونس الا قد صدق ؛ كان الوليد لحانا ، وكان عبد الملك يعتذر من ذلك ، ويقول : « شغلنا حب الوليد عن تأديبه ، لكن هذا سليمان فاسألوه عما شئتم » .

وكان الشعراء يحفلون بقوله ويبنون عليه شعراً ، فقد (٣٤) بنى

---

٣٢ ــ ديوان الاعشى ص ٢٧ قصيدة رقم ٣ .

٣٣ ــ الموشح ص ١٩٦ .

٣٤ــوفيات الاعيان ج ٢٤٦/٧ .

منصور النمري على قول يونس : « ما بكت العرب على شيء في اشعارها كبكائها على الشباب ، وما بلغت كنهه » ؛ فقال من جملة قصيدة يمدح بها هارون الرشيد :

ما كنت أوفي شبابي كنه غرّته حتى انقضى فاذا الدنيا له تبع

وليونس قول ذائع يدل على دقة حكمه ومعرفته بطبيعة الشعر ،وما يتحكم في جودته ؛ فقد سأله ابن سلام عن اشعر الناس؟فقال : « (٣٤) لا اومىء الى رجل بعينه ولكني اقول : امرؤ القيس اذا ركب ، والنابغة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ، والاعشى اذا طرب » . وكان يقول عن الشعر: « (٣٥) انه كالسرّاء والشجاعة والجمال ، لا ينتهي فيه الى غاية » .

وكان للشعراء عنده مكانة عالية ، وعلاقة وثيقة ؛ ولعل أمتن هذه العلاقات تلك التي كانت بينه وبين العجاج ورؤبة ، حتى انهما كانا عنده « (٣٦) اشعر أهل القصيد » . وقد (٣٧) « اختُصّ بالرواية عن رؤبة وتعصّب له » ؛ وكان يهب للدفاع عنه اذا ما حاول احد أن ينال منه ؛ فهذا (٣٨) شُبَيل بن عزرة يدخل على ابي عمرو بن العلاء ـ ويونس حاضر ـ فيبدي استغرابه من أن رؤبة لا يعرف اشتقاق اسمه ، فيثب يونس ، ثم يجلس بين يدي شبيل ويقول له : علّك تظن ان معدّ بن عدنان كان افصح من رؤبة ؟ فانا غلام رؤبة . فما الرّوبة والرّؤبة والرّوبة والرّوبة والرؤبة ؟

---

٣٤ ـ معجم الادباء جـ ٢٠/٦٥ ، خزانة الأدب جـ ١/١٧٥ .

٣٥ ـ طبقات فحول الشعراء ص ٦٦ (مطبعة المدني ـ القاهرة ١٩٧٤) .

٣٦ ـ خزانة الأدب جـ ١/٩٠ .

٣٧ ـ الرواية والاستشهاد باللغة ص ١١ .

٣٨ ـ مراتب النحويين ص ٢٢ . خزانة الادب جـ ١/٩٠ .

كان شبيلبن عزرة راوية نسابا عالما بالغريب ، وكان شاعرا ، تشيّع سبعين سنة ثم صار بعد ذلك خارجيا،ويكنى ابا عمرو ، مات بالبصرة . انظر مراتب النحويين ص ٢٣ .

(الخامسة مهموزة فقط)،فاذا بشبيل يغضب ويقوم ، واذا بأبي عمرو ينكر على يونس تصرّفه مع رجل شريف قصد مجلسه ؛ فيعتذر يونس قائلا : ما تمالكت اذ ذكر رؤبة أن قلت ما قلت .

غير أن شهرة يونس تأتي من علمه باللغة والنحو،إذ (٣٩) « كان اغلب عليه» يعرف به فيقال (٤٠) «يونس النحوي» تمييزاً له عن غيره ممن عرفوا بهذا الاسم • وقد سمع (٤١) اللغة عن العرب،شأنه شأن أوائل النحاة الذين كانوا يستقون المادة النحوية من أفواه الاعراب في البادية ؛ وألّف (٤٢) في اللغة كتاب « اللغات » و « النوادر الكبير » و « النوادر الصغير » و « الامثال » .

أما النحو فأخذه عن مجموعة،أولهم (٤٣) حماد ابن سلمة ، مع أنه كان اسن (٤٤) منه ، وكان يونس يفضله (٤٥) ؛ولكن اكثرهم تأثيرا فيه أبا عمرو بن العلاء الذي يبدو أنه كان ملازما اياه ، يكتب له حتى عُدَّ من كُتّابه (٤٦) . وأثر ابي عمرو في علم يونس ظاهر في ميدان الشعر ، والرواية ، والنقد ، واللغة والنحو ؛ وكان يونس يجلّ استاذه ويحترم رايه قائلا : « (٤٧) لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد ، كان ينبغي لقول ابي عمرو بن العلاء في العربية ان يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد الا وانت آخذ من قوله وتارك » .

---

٣٩ ــ مراتب النحويين ص ٢١ .

٤٠ ــ انظر : وفيات الاعيان ج ٧/٢٤٤ ؛ خزانة الادب ج ١/٩٠ . شذرات الذهب ج ١/٣٠١ .

٤١ ــ اخبار النحويين ص ٢٧ .

٤٢ ــ انظر : الفهرست ص ٧٩ .

٤٣ ــ طبقات النحويين واللغويين ص ٥١ .

٤٤ ــ نزهة الالباء : ص ٤٢ .

٤٥ ــ المصدر نفسه ص ٤٣ .

٤٦ ــ اخبار النحويين البصريين ص ٢٧ .

٤٧ ــ طبقات فحول الشعراء ص ١٦ (المدني ــ القاهرة ١٩٧٤ م) وانظر : نزهة الالباء ص٣١ ٣١ .

وقد شاهد يونس مرحلة متطورة في ميدان النحو ، توضحت فيهـا اسس النحو ، وثبتت فيما بعد في كتاب سيبويه • وتعد هذه المرحلة قفزة واسعة اذا ما قيست بتلك التي شهدها ابن ابي اسحق • سُئل (٤٨)يونس عن ابن أبي اسحق وعلمه فقال : هو والبحر سواء ؛ أي هو الغاية .قال: فأين علمه من علم الناس اليوم ، لو لم يكن في الناس اليوم أحد لا يعلم الا علمه يومئذ لضحك منه ، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ، ونظر نظره لكان أعلم الناس .

وقد اسهم يونس في تطور النحو مساهمة فعالة ، وكان له شخصيته الواضحة واثره البيّن حتى قيل : « (٤٩) له قياس في النحو ومذاهـب يتفرد بها » . وقد خصص معظم حياته للتدريس ، فكان لـه بالبصرة حلقة (٥٠) ينتابها طلاب العلم واهل الأدب ، وفصحاء الأعراب ، ووفود البادية ؛ ودرس عليه علماء مشاهير سنوات طويلة • فاختلف (٥١) اليه ابو عبيدة اربعين سنة ، وابو زيد عشر سنين ، وخلف الأحمر عشرين سنة ، واخذ عنه قطرب ، (٥٢) ومحمد (٥٣) بن سلام الجمحي ، والكسائي ، والفراء .

ويكفيه ان سيبويه اخذ عنه فأكثر (٥٤) ، ونقل عنه نقولا صدق فيها

---

٤٨ ــ طبقات النحويين واللغويين ص ٣١ .

٤٩ ــ اخبار النحويين البصريين ص ٢٧ وانظر انباه الرواة : ٤/٧٠ .

٥٠ ــ انظر : الفهرست ص ٧٩ ، وانباه الرواة : ج ٤/٧٠ .

٥١ ــ وفيات الاعيان : ج ٧/٢٤٥ . معجم الادباء : ج ٢٠/٦٥ . انباه الرواة : ج ٤/٧١ . شذرات الذهب : ج ١/٣٠١ .

٥٢ ــ انظر : مراتب النحويين ص ٦٧ .

٥٣ ــ انظر : مراتب النحويين ص ٦٧ .

٥٤ ــ اخبار النحويين البصريين : ص ٢٧ . انباه الرواة : ج ٤ / ٧٠ ، طبقات المفسريـن ج ٢/٣٨٦ .

جميعا ، وشهد يونس على صدقها شهادة رفعت من ذكر سيبويه وكتابه ، فقد (٥٥) قال حين ذكر سيبويه عنده : أظن هذا الغلام يكذب على الخليل ، فقيل له : قد روى عنك أشياء كثيرة ، فانظر فيها ، فنظر فيها ، فقال : صدق في جميع ما قال ، هو قولي .

وقد ذكر سيبويه يونسَ وروى عنه في نحو ٢٠٠ موضع (٥٦) من مواضع الكتاب،بحيث كان يتكرر (٥٧) اسمه في الصفحة الواحدة أحياناأكثر من مرة واحدة .

وقد روى يونس في الكتاب لغة كثيرة عن العرب ، وكان مفتاحرواياته عنهم يختلف من رواية الى اخرى ، فكان يفتتح روايته بـ (٥٨) « أنّ قوما من العرب ... »، (٥٩) « انّ ناسا يقولون ... »، (٦٠) « انّ ناسا من العرب ... » ، (٦١) « أنّ بعض العرب الموثوق بهم ... »، (٦٢)«أنبعض العرب ... » ، (٦٣) أنّ قوما ...» ، (٦٤) « أن العرب تقول ... » ، (٦٥)« أنه سمع اعرابيا ... » ، (٦٦) « أنه سمع

---

٥٥ ــ اخبار النحويين البصريين : ص ٣٧ .

٥٦ ــ انظر : سيبويه امام النحاة : ص ٩٠ .

٥٧ ــ انظر : كتاب سيبويه جـ ١/٤٢٨ ذكر اربع مرات ، وجـ ٢/٤١٠،٤١١ ، وانظر : جـ ٣ / ١٩٧ ، ٣٠٤ ، ٣١٢ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ ، ٤٤٢ ، ٦٢٢ .

٥٨ ــ انظر : الكتاب جـ ١/٣٨٩ .

٥٩ ــ الكتاب جـ ١/٤١٦ ، جـ ٢/٤١٠ .

٦٠ ــ انظر : الكتاب : جـ ٢/٢٧ ، ١١٢ ، جـ ٣/٢٤٤ .

٦١ ــ انظر : الكتاب : جـ ٢/٣٣٧ .

٦٢ ــ انظر : الكتاب : جـ ٢/٢١٣ .

٦٣ ــ الكتاب جـ ٢/١١٩ .

٦٤ ــ الكتاب جـ ٢/١٤٣ ، جـ ٣/٤٢٥ .

٦٥ ــ الكتاب جـ ٢/٤١١ .

٦٦ ــ الكتاب جـ ٣ / ١٣٥ .

العرب ... » ،(٦٧) « أن من العرب من يقول ... » .

وقد روى عن رؤبة (٦٨) من الشعـــراء ، والفـــرزدق (٦٩) ، وجرير (٧٠) ، والأسود (٧١) بن يعفر . وروى عن أبي (٧٢) عمرو بـــن العلاء،وكان طريق سيبويه اليه ، وروى عن ابن (٧٣) أبي اسحق .

وتأتي شخصيته النحوية من خلال الكتاب في الدرجة الثانية (٧٤)بعد شخصية الخليل ، وكثيرا ما كان يقترن اسماهما في رواية أو رأي . ومما يلفت النظر في رواية سيبويه عنهما ؛ حين ذكرهما معا ، انه كان يترحم عليهما اذا سبق ذكر يونس ذكر الخليل ، أما اذا سبق ذكر الخليل يونس ترحّم على الخليل وحده ، ثم أتبع الترحُّم عليه ذكر يونس،فهو يقول فـــي الموضع الأول مثلا : (٧٥) « وزعم يونس والخليل،رحمهما الله،أن الدرهـم ليست نكرة » ، (٧٦)«ولم يجز يونس والخليل ـــ رحمهما الله ـــ كما غلمانا لك » ، (٧٧) « هذا قول يونس والخليل رحمهما الله » . وفي الثانـــي يقول مثلا : (٧٨) « واذا لم تلحق الألف قلت:وازيدُ،إذا لم تضف ، ووازيدٍ،

---

٦٧ ـ الكتاب ج ١ / ٢٦٢ ، ج ٢/٦٥ .

٦٨ ـ انظر الكتاب : ج ١/٥١ ، ج ٢/١٥٣ ، ج ٣/٢٠٤ ، ٥٦٥ .

٦٩ ـ انظر الكتاب ج ٢/٧٢ .

٧٠ ـ انظر الكتاب : ج ١/٢٧٨ .

٧١ ـ انظر الكتاب : ج ٣/١٣٥ .

٧٢ ـ انظر الكتاب : ج ١/٣٨٧ ، ج ٢/١١٣ ، ١٨٥ ، ٢٩٩ ، ٣١٩ ، ج ٣/١٠١ ، ٢٤٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ ، ٤٥٧ ، ٥٦٦ .

٧٣ ـ انظر الكتاب : ج ٣/٢٤٢ .

٧٤ ـ كتاب سيبويه وشروحه ص ٣١ .

٧٥ ـ الكتاب : ج ١/٤٢٨ .

٧٦ ـ الكتاب : ج ٢/١٥٩ .

٧٧ ـ الكتاب : ج ٢/ ٣٣٨ .

٧٨ ـ الكتاب : ج ٢/٢٢١ .

إذا اضفت ، وان شئت قلت وازيدي،والالحاق وغير الالحاق عربي فيما زعم الخليل رحمه الله ويونس » . وفي باب الندبة (٧٩) « وذلك قولك:وارجلاه، ويا رجلاه!وزعم الخليل،رحمه الله،ويونس انه قبيح وانه لا يقال » . ويقول: (٨٠) « زعم الخليل ــ رحمه الله ــ ويونس جميعا انه يجوز،ما أتاني غيرُ زيد وعمر » .وفي اعراب الضمير بعد لولا : (٨١) « وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس » . ولعلّ ما سلكه سيبويه ازاء الخليل ويونس يذكرني بالأعرابي الذي صلّى خلف النبي صلى الله عليه وسلم،ثم دعا الله قائلا : (٨٢)« اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا احدا » فدهش النبي وقال له : « لقد ضيّقتَ واسعا » .

ومفاتيح رواية سيبويه عن يونس كثيرة منها : (٨٣) « حدّثنا يونس ... » ، (٨٤) « اخبرنا يونس ... » ، (٨٦) « انشدنا يونس...» وفي اغلب الروايات : (٨٧) « زعم يونس ... » ، (٨٨) « وأما يونس فيقول ... » ، (٨٩) « وهذا قول يونس ... » ونقل سيبويه عنه أبوابا كاملة في النحو والصرف ، إما عنه (٩٠) وحده ، وإما عنه وعن الخليل(٩١)

---

٧٩ ــ الكتاب : ج ٢/٢٢٧ .
٨٠ ــ الكتاب : ج ٢/٣٤٤ .
٨١ ــ الكتاب ج ٢/٣٧٣ .
٨٢ ــ بطل الابطال ص ٦١ .
٨٣ ــ انظر : الكتاب : ج ١/١٥٥ ، ٤٠٩ ــ ج ٢/٢٥٥ ، ٣٦١ ، ٤١٠ ــ ج ٣/٢٣٧ .
٨٤ ــ انظر : الكتاب : ج ٢/٢٧٦ ــ ج ٣/٢٦٧ .
٨٤ ــ انظر : الكتاب : ج ٣/٤٥٥ .
٨٦ ــ انظر : الكتاب : ج ١/١٢٠ ، ٢٧٨ .
٨٧ ــ انظر :الكتاب:ج ١/٢٨٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ج ٢/٧٧ ، ٤١١ ، ١٩٩ ، ج ٣/١٣٥ ، ٢٤٩ ، ٤٢٥ .
٨٨ ــ انظر : الكتاب : ج ٢/٧٦ .
٨٩ ــ انظر : الكتاب : ج ١/٤٣٣ .
٩٠ ــ انظر : الكتاب : ج ٣/٤١٧ ــ ٤١٨ . ج ٣/٤٢٣ ــ ٤٢٤ .
٩١ ــ انظر : الكتاب : ج ٢/٢١٣ ــ ٢١٤ ، ٣٣٨ .

جميعا .

ويعتز سيبويه في كتابه براي يونس ويعتدّ به ، ويثق ، فهو يعود اليه ويساله كلما اشكل عليه ، يقول في باب ما ينتصب على التعظيم او المدح : « (٩٢) وسمعنا بعض العرب يقول : (الحمد لله ربَّ العالمين) فسالت عنها يونس فزعم انها عربية » ، ويقول في باب اختلاف العرب في الاسم المعروف الغالب اذا استفهمت عنه بمن : « (٩٣) وسالت يونس عن: رايت زيدَ بنّ عمرو ، فقال : اقول : من زيدّ بنّ عمرو ، لانه بمنزلة اسم واحد ؛ وهكذا ينبغي اذا كنت تقول : يا زيدّ بنّ عمرو ، وهذا زيدُ بنُ عمرو ، فتسقط التنوين » . ومواطن (٩٤) اسئلته له كثيرة .

وكان يتخذ من رواية يونس تصديقا لرواية نحوي آخر ؛ فهو يقول : « (٩٥) وزعم ابو الخطاب ان العرب الموثوق بهم يقولون : انا هذا، وهذا انا ... وحدثنا يونس ايضا تصديقا لقول ابي الخطاب . ان العرب تقول : هذا انت تقول كذا وكذا ، لم يرد بقوله : هذا انت ، ان يُعرّفه نفسه، كانه يريد أن يعلمه انه ليس غيره ، هذا محال،ولكنه اراد ان ينبهه ، كانه قال:الحاضر عندنا انت ، والحاضر القائل كذا وكذا انت .

واحيانا قد لا يطمئن الى قول نحوي فيلجأ اليه ، فعنده الخبر اليقين. يقول : « (٩٦) وزعم عيسى بن عمر ان ناسا من العرب يقولون : إذن افعلُ ذاك ، في الجواب ؛ فاخبرت يونس بذلك ، فقالَ : لا تُبعدن ذا ، ولم يكن ليروى إلاّ ما سمع ، جعلوها بمنزلة هل وبل » .

---

٩٢ ــ الكتاب : ج ٢/٦٣ .

٩٣ ــ الكتاب : ٢/٤١٤ .

٩٤ ــ انظر : الكتاب : ج ٢/٢٣٦ . ج ٢/٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٤٤٢ .

٩٥ ــ الكتاب ٢/٣٥٤ ــ ٣٥٥ .

٩٦ ــ الكتاب ج ٢/١٦ .

ولم تتوقف الثقة بيونس الى هذا الحد ، وانما بلغت اتساعا بحيث اتخذ سيبويه من قوله دعامة يؤيد بها مذهبه ؛ فقد رأى سيبويه رأيا ثم بدا وكأنه يشعر بعدم الطمأنينة الى ما رآه، فدعمه بقول ليونس لتهدأ به نفسه، قال : « (٩٧) وأما يا تميمُ أجمعون فأنت فيه بالخيار ، إن شئت قلت : أجمعون . وان شئت قلت : أجمعين، ولا ينتصب على أعني ، من قِبَل أنه محال ان تقول اعني أجمعين ؛ ويدلك على ان أجمعين ينتصب لأنه وصف لمنصوب قول يونس : المعنى في الرفع والنصب واحد » .

غير ان الطريقة التي كان سيبويه يذكر بها يونس وروايته تُوهم وتُضلّل ؛ إذ يصعب على الباحث بسببها ان يميز بين ما هو رواية محضة ليونس، وما هو رواية وراي في آن واحد . ولعل هذه الطريقة هي التي أوقعت النحاة المتأخرين ، وجعلتهم ينظرون الى رواية يونس على انها رواية محضة، دون ان يلتفتوا او ينتبهوا الى انها في أحيان كثيرة رواية وراي معاً . وقد وقع السيرافي، أشهر شراح الكتاب، في حيرة حين اعترضه قول سيبويه عن يونس في باب الندبة : « (٩٨) وأما يونس فيلحق الصفة الالف فيقول : وازيد الظريفاه ، واجمجتيّ الشاميّتيناه » «فقال(٩٩): ندبة الصفة قول يونس والكوفيين ، والذي حكاه سيبويه عن يونس لست ادري إلحاق علامة الندبة له من قياس يونس ، او مما حكاه عن العرب فنحتج له به » .

وهذا «(١٠٠) باب ما لا يعمل فيه ما قبله من الفعل الذي يتعدى الى المفعول ولا غيره »، يتحدث فيه سيبويه عن المواطن التي لا يعمل فيها المتعدي فيما بعده ، ويطنب في التفصيل والتوضيح، مبينا أن الاسم بعد هذا

---

٩٧ ـ الكتاب ٢/١٨٤ .
٩٨ ـ الكتاب : ٢/٢٢٦ .
٩٩ ـ حاشية الكتاب : ٢/٢٢٦ .
١٠٠ ـ الكتاب ١/٢٣٥ .

الفعل قد يأتي مرفوعا وقد يأتي منصوبا ؛ كل ذلك في اسلوب يُوهم المرء أن كل ما يقوله من رفع ومن نصب هو له ، ولكنه يفاجئنا في نهاية الصفحة الرابعة بقوله « والرفع قول يونس »؛فلا يدرى أهو الرفع الذي تحدث عنه في الفقرة التي ذكر يونس فيها ، أم الرفع في كل ما ورد في هذا الباب ! ومن يتمعن تماما في السياق العام للباب يجد أن الرفع كلّه ليونس، اذ يبدو أن كل ما مثّل سيبويه به يقوم على موقف يونس،وان كنت لا أجزم بأن كل ما جاء به سيبويه من أمثلة هو ليونس ، ولكن يكفي ان يفهم ان مذهب الرفع الذي قام عليه معظم الباب هو مذهب يونس .

وحسب فهمي للامر وتصوري إياه ، فانني لا أستطيع أن أفهم ان موقف يونس مما يرويه عن العرب كموقف أبي زيد مما يرويه ، أو موقف الأصمعي مثلا مما يرويه ؛ ذلك ان أبا زيد والأصمعي راويان للغة فحسب، بينما يونس بن حبيب راوية ونحوي،ولكنه نحوي قبل أن يكون راوية .فاذا ما روى فان ما يرويه لا يكون في معظمه إلاّ لبيان موقف نحوي أو استنباط موقف نحوي،أو التدليل على موقف نحوي اتخذه ، وذلك على الرغم من أن سَوْق سيبويه لرواية يونس يوهم أنه يروي رواية دون أن يتّخذ من هذه الرواية موقفا نحويا. فيونس قعد معظم حياته للدرس النحوي،ولترسيخ القواعد النحوية في ضوء ما بين يديه من مادة لغوية ؛ فاذا قال سيبويه : «(١٠١) وحدثنا يونس أن بعض العرب يقول : يا أمّ لا تفعلي،جعلوا هذه الهاء بمنزلة هاء طلحة اذا قالوا يا طلحَ أقبل .. » فكيف يكون هذا القول رواية ليونس ولا يكون رأيا وموقفا ؟ إنه يقيس في هذا القول ويعلّل . وكيف يكون قول سيبويه عن يونس في باب النداء : «١٠٢» ويقوّي ذلك كله ان يونس زعم أنه سمع من العرب من يقول : يا فاسقُ الخبيثُ،يدلل على ان

---

١٠١ ــ الكتاب : ٢/٢١٣ .

١٠٢ ــ الكتاب ٢/١٩٩ .

كل منادي مضموم هو معرفة » . كيف يكون هذا القول رواية ليونس ولا يكون رأيا يُلمح من سياق الكلام ؟ . بل كيف يكون رواية ما ينسب الى يونس في قول سيبويه : « (١٠٣) وحدثنا بذلك يونس وعيسى جميعا أن بعض العرب الموثوق بعربيته يقول : ما مررت بأحد إلاّ زيداً » وقوله : « (١٠٤) وحدثنا يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقولون : مالي إلاّ ابوك أحد » . كيف يكون ذلك رواية ليونس مع أنه يروي هنا عن العرب الموثوق بهم ؛ فكيف يكون هذا القول رواية ولايكون رأياً،ما دام صاحب القول نحوياً أولاً وقبل كل شيء ، وما دام يروي عن عرب موثوق بهم ؛ والنحوي يتصيّد ما يرويه عن الموثوق بهم تصيداً ليبني عليه رأيا وموقفا نحويا .

ومع أن يونس ذو شخصية واضحة بارزة تمثل في معظم صفحات الكتاب وتتلازم مع الخليل في مواضع عدة،إما روايةً ــ وهي في معظمها رأي كما أسلفت ــ وإما رأياصريحا صرّح به سيبويه ، إلاّ ان هذه الشخصية تكاد لا تبين بوضوح،أو أن هذه الشخصية لا تأخذ المكانة التي تستحقها في معظم كتب النحاة المتأخرين ، بينما تظهر فيها شخصيةالأخفش والمازني والجرمي وابن السراج والزجاج بشكل أوضح وأبرز ، مع ان فرقاً كبيراً بين هذا وهؤلاء . لا بد ان يعتريك التساؤل والاستغراب حين تجد أن يونس لا يذكر في شرح ابن عقيل مثلا ، او شرح المفصل ، او حاشية الصبان ، أو شرح الاشموني،أو مغني اللبيب،أو شرح التصريح،اكثر من ثلاثين مرة في اكثرها إنصافا له ، مع انه ذُكر اكثر من مائتي مرة ــ كما أسلفت ــ في الكتاب ، ولقد اوهمت هذه الكتب الدكتور شوقي ضيف أن يونس لم يكن له دور في علم النحو ، فاستخلص نتيجة،بعد ان مرّ عليه مروراً خاطفا،فقال : « (١٠٥) وعلى هذا النحو وقع يونس بعيداً عن تطور

---

١٠٣ ــ الكتاب ٢/٢١٩ .

١٠٤ ــ الكتاب ٢/٢٣٧ .

١٠٥ ــ المدارس النحوية ص ٢٩ .

نظرية النحو على شاكلة ما انتهت اليه في الكتاب عند سيبويه والنحاة الذين يوضعون بحق في تطورها، وهم، ابن أبي اسحق، وعيسى بن عمر، ثم الخليل بن احمد، وسيبويه » . فهو يرى ان ابن أبي اسحق وعيسى بن عمر اهم من يونس واكثر تأثيراً في مجال النحو ؛ ولو عاد الدكتور شوقي ضيف الى كتاب سيبويه، الذي يعدّه الثمرة الناضجة لتطور نظرية النحو، وتتبّع مساهمة يونس فيها، لكان له موقف آخر مختلف ، ولكنه اكتفى بالعودة الى تلك الكتب المتأخرة التي طمست شخصية يونس واثره في النحو في حدّ بعيد.

ولعلّ عدم وضوح شخصية يونس وإنصافها وإعطائها ما تستحقه من حق ضائع يعود الى سببين، الأول : ماأسلفته ، وهو الطريقة التي كان سيبويه يتبعها في ذكر يونس وروايته ، إذ كانت تؤدي الى اللبس والتضليل، بحيث يصعب على الباحث أن يميّز بين ما هو رواية محضة، وما هو رواية وراي ؛ فترك المتاخرون البحث في هذا الأمر ولجأوا الى الحل الأسهل، وهو أن ينظروا الى كل ما رواه يونس على أنه رواية محضة ، وان ينظروا الى الراي الذي بني على ما رواه يونس على انه رأي لسيبويه.

والسبب الثاني : ــ وهو أشد وقعا ــ أن النحاة المتاخرين وزّعوا الكثير من آرائه التي صرح بها سيبويه على أولئك النحاة الذين وافقوه فيها ، فنسبوا بعضها الى سيبويه وبعضها الى البصريين تعميما ، وبعضها الى الكوفيين .

فمما نسب الى سيبويه وهو ليونس والخليل، حكم الاسم المضاف في المنادى حينما يكرر، قال سيبويه : « (١٠٦) هذا باب يكرر فيه الاسم في حال الاضافة ويكون الأول بمنزلة الآخر ، وذلك قولك : يا زيدَ زيدَ عمرو ، ويا زيدَ زيدَ أخينا ، ويا زيدَ زيدَنا . زعم الخليل، رحمه الله، ويونس أن هذا

---

١٠٦ ــ الكتاب ٢/٢٠٥ .

كله سواء،وهي لغة للعرب جيدة » . وهذا الراي واضح انه ليونس والخليل وليس لسيبويه فيه إلاّ التوضيح ؛ وقد نَسَبَ هذا الراي الى سيبويه كل من ابن عقيل (١٠٧)، والأشموني (١٠٨) ، والصبان (١٠٩) .

ومما نسب اليه ايضا راي يونس والخليل في الضمير بعد لولا،قال سيبويه : « (١١٠) هذا باب ما يكون مضمرًا فيه الاسم متحولا عن حاله اذا أظهر بعده الاسم،وذلك لولاك ، ولولاي،اذا اضمرتَ الاسم فيه جُرّ ، واذا أظهرتَ رُفع ، ولو جاء علامة الاضمار على القياس لقلت : لولا أنت، كما قال سبحانه : (١١١) (لولا أنتم لكنا مؤمنين) ولكنهم جعلوه مضمرًا مجرورًا ؛ والدليل على ذلك أن الياء والكاف لا تكونان علامة مضمر مرفوع » قال الشاعر يزيد بن الحكم :

وكم موطن لولاي طحت كماهوى باجرامه من قُلّة النيق مُنهوى

وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس » . والراي في هذا الموضع صريحٌ الصراحةَ كلها انه ليونس والخليل،وقد نسبه الى سيبويه كل من المبرد (١١٢) ، وابن عقيل (١١٣) ، وابن الشجري (١١٤) ، والرضى(١١٥). ونسبه ابن هشام (١١٦) الى سيبويه والجمهور .

ومما نسب الى البصريين راي يونس والخليل في ندبة النكرة ، قال

---

١٠٧ ــ انظر : شرح ابن عقيل ٢/٢١٢ .
١٠٨ ــ انظر : شرح الاشموني ٢/٥٤ .
١٠٩ ــ انظر : حاشية الصبان ٢/١٥٤ .
١١٠ ــ الكتاب ٢/٣٧٢ ــ ٣٧٤ .
١١١ ــ سبا ــ آية ٣١ .
١١٢ ــ انظر : الكامل في الأدب ١/١٠٩٧ .
١١٣ ــ انظر : شرح ابن عقيل : ٢/٦ .
١١٤ ــ انظر : امالي ابن الشجري ١/١٨٠ .
١١٥ ــ انظر : شرح الكافية ٢/٢٠ .
١١٦ ــ انظر : مغني اللبيب ص ٣٦١ .

سيبويه : « (١١٧) هذا باب ما يجوز أن يندب ، وذلك قولك:وارُجُلاه ، ويا رُجُلاه ، وزعم الخليل رحمه الله ويونس انه قبيح وانه لا يقال » . وقد نسب ابن الانباري (١١٨) هذا الراي الى البصريين فطمس بذلك ذكر يونس على الرغم من انه واحد من البصريين كالخليل وسيبويه .

ومما نُسب الى الكوفيين راي يونس في جواز عود الخافض وعدمه ، اذا كان المخفوض ضميراً ؛ فقد نسبه الى الكوفيين كلٌّ من ابن عقيل (١١٩) وابن الانباري (١٢٠)؛ أما الاشموني فنسبه الى يونس والكوفيين ، قال : « (١٢١)

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفض لازما قد جُعلا

في غير الضرورة،وعليه جمهور البصريين . . قال الناظم : (وليس) عود الخافض (عندي لازما) وفاقا ليونس والأخفش والكوفيين ... » .

ومما نسب اليهم ايضا راي يونس في الفصل بين المضاف والمضاف اليه،فقد نسبه اليهم كل من ابن الانباري (١٢٢) والأزهري (١٢٣)،بينما نسبه الرضي اليه،قال : « (١٢٤) وانكر اكثر النحاة الفصل بالمفعول وغيره في السعة ، ولا شك أن الفصل بينهما في الضرورة بالظرف ثابت مع قلّته وقبحه ؛ والفصل بغير الظرف في الشعر اقبح منه بالظرف،وكذا الفصل بالظرف في غير الشعر اقبح منه في الشعر ؛ وهو عند يونس قياس » .

---

١١٧ ــ الكتاب ٢/٢٢٧ .

١١٨ ــ انظر الانصاف ١/٣٦٢ .

١١٩ ــ انظر : شرح ابن عقيل ٢/١٨٧ .

١٢٠ ــ انظر : الانصاف ٢/٤٦٣ .

١٢١ ــ شرح الاشموني ٢/٤٢٩ .

١٢٢ ــ انظر : الانصاف ٢/٤٢٧ .

١٢٣ ــ انظر : شرح التصريح ٢/٥٧ .

١٢٤ ــ شرح الكافية ١/٢٩٣ .

ويكاد يونس لا يُذكَر الا بذكر آرائه التي خالفه سيبويه فيها ؛ من ذلك خلافهما في حكم جواب الشرط المضارع اذا دخلت همزة الاستفهام على الشرط في بدايته ، قال الزجاج : « (١٢٥) هذا باب ما جاء في التنزيل من ادخال همزة الاستفهام على الشرط والجزاء ؛ وهذه ايضا مسألة فيها اختلاف بين سيبويه ويونس ، وصورتها إن تأتني اتك بجزم الجواب عند سيبويه ، ويونس يقول : إن تأتني آتيك بالرفع ؛ ويقول هو في نية التقديم ، ويقدره : اتيك ان تأتني » .

ومن ذلك مخالفة سيبويه يونس في أصل لبيك (١٢٦) ، وفي تصغير هند لوسُمّي بها مذكر (١٢٧) ، وفي : من زيدًا واباه ، في النصب على الحكاية (١٢٨) ، والنسبة الى نحو ملهى (١٢٩) ، وابدال نون المثنى همزة نحو اضرباء الغلام (١٣٠) ، والنسبة الى مائه (١٣١) ، وردّ المحذوف في التحقير (١٣٢) .

وكتاب سيبويه حسب فهمي اياه يتنازعه نحاة ثلاثة ، وهم الخليل ويونس وسيبويه مرتبين — في رأيي — حسب مساهمتهم في هذا الكتاب ؛ ولكن سيبويه بدت شخصيته النحوية وكأنها تفوق شخصية يونس ، بل كادت تبدو متفوقة على شخصية الخليل وقد فاقتها فعلا في كتب النحاة المتأخرين ، ولعل مردّ ذلك الى تأليف سيبويه الكتاب بعد أن ألم شتات

---

١٢٥ — اعراب القرآن ٣/٧٨٢ .

١٢٦ — انظر : خزانة الادب ٢/٩٣ ، شرح التصريح ٢/٢٨ . والكتاب ١/٣٥١ .

١٢٧ — انظر : الخصائص ١/١٥٧ .

١٢٨ — انظر : الكتاب ٢/٤١٣ ، وشرح الاشموني ٣/٦٤٣ .

١٢٩ — انظر : شرح الاشموني ٣/٧٢٧ .

١٣٠ — انظر : حاشية الصبان ٣/٢٢٥ .

١٣١ — انظر : الخصائص ٢/١٠٦ .

١٣٢ — انظر : المصدر نفسه ٣/٧١ — ٧٢ .

القواعد النحوية وبوّبها ودلّل عليها . ولو قُدّر ليونس ــ واعْتُذر لاستعمال لو ــ أن يؤلف الكتاب، وأن يتنازعه الخليل ويونس وسيبويه، لتفوّقت شخصيته على شخصية سيبويه تفوقا واضحا في الكتاب وغيره، ولكانت وضعت بجدارة في المكانة التي تستحقها . من غير أن أكون في هذا القول متعصبا ليونس أو معطيه مكانة أكثر من التي له ، كبعض الباحثين الذين يقفون في أحيان كثيرة موقف المدافع ، أو المتعصّب للشخصية التي يبحثون فيها، وكأن الأمر يمسّهم أو يتعلّق بهم . ومنطلقي في موقفي هذا هو العطاء العلمي الثرّ الذي بين يدي ليونس من خلال الكتاب .

ولم يكن ليونس أثر في سيبويه وكتابه بصفة خاصة ، والمدرسة البصرية بصفة عامة فحسب ، وانما كان له اثر كبير ايضا في نشأة المدرسة الكوفية التي اتخذت من اتجاهه مساراً لها وهاديا .

ب ــ فقد ساد المدرسة البصرية زمن يونس اتجاهان في النحو :

الاتجاه الأول : اتجاه متشدد في القياس والسماع عن العرب، ويمثله ابن أبي اسحٰق ، وتلميذه عيسى بن عمر ؛ فكان الأول : « (١٣٣) اشد تجريدا للقياس » وكان يطعن على العرب ، ولا يتحرّج من أن يقول للشاعر العربي المشهور بالفصاحة : لحنت ؛ فقد لحن (١٣٤) الفرزدق في قوله: « مولى مواليا » في بيته :

فلو كان عبد اللــه مولــى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليــا

وقال له : كان يجب أن تقول : مولى موال .

وتبعه الثاني الذي كان لا يتحرّج من الطعن (١٣٥) على العــرب

---

١٣٣ ــ طبقات فحول الشعراء ، ص ٣٠ (دار المعارف ١٩٥٢ م) .

١٣٤ ــ نزهة الالباء ص ٢٧ .

١٣٥ ــ طبقات النحويين واللغويين ص ٣٢ .

ايضا ، فكان يقول (١٣٦) : اساء النابغة في قوله :

فبتُّ كأني ساوَرَتْني ضئيلة من الرُّقش في انيابها السُّمُّ ناقعُ

والوجه الصواب عنده : السم ناقعا .

اما الاتجاه الثاني فهو اتجاه متساهل في القياس ، معظّم لما يرد عن العرب ؛ ويمثله ابو عمرو بن العلاء ، وتلميذه يونس بن حبيب . وكان الأول « (١٣٧) اوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها » ، وكان(١٣٨) « اشد تسليماً للعرب »وكان يجوّز الاوجه المختلفة التي ترد عنهم • جاءه عيسى ابن عمر (١٣٩) « فقال له : يا أبا عمر : ما شيء بلغني انك تجيزه ؟ قال : وما هو ؟ قال :بلغنيانكتجيز « ليس الطيّب إلاّ المسك » فقال ابو عمرو : نمت ياباعمرو واولج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلاّ وهو ينصب ، وليس في الارض تميمي الا وهو يرفع » .

وكان ابو عمرو ينشد قول ذي الرمة (١٤٠) :

وظاهرٌ لها من يابس الشَّخْتِ

فقيل له : أنشدتنا بائس ، فقال : يابس بائس واحد ، هذا شعر ليست عليه مضايقة .

---

١٣٦ ــ طبقات فحول الشعراء ، ص ١٦ ، (دار المعارف ١٩٥٢ م).

١٣٧ ــ طبقات فحول الشعراء ، ص ١٤ (دار المعارف ١٩٥٢ م) .

١٣٨ ــ نزهة الالباء ، ص ٢٧ .

١٣٩ ــ طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٨ . وانظر : الاشباه والنظائر ج ٣/٧٢ .

١٤٠ ــ المحتسب ج ١/٢٩٧ .

أما يونس فسار مساره اذ كان يجلّه ويحترم رأيه ويقول : (١٤١)«لو كان احد ينبغي ان يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان ينبغي لقول ابي عمرو ابن العلاء في العربية ان يؤخذ كله ، ولكن ليس احد الا وانت آخذ من قوله وتارك » . فاقتضى أثره في عدم الطعن على العرب ؛ فهذا ابن أبـــي اسحق (١٤١) يسمع قول الفرزدق في مدحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام تضربنـا بحاصب كنديـف القطن منثـور

على عمائمنـا يلقـى وأرجلنـا على زواحـف تزجى مخها ريـر

فيقول له : (١٤٢) « أسأت انما هي « ريرٌ » ؛ وكذلك قياس النحو في هذا الموضع » . وقيل انه قال له : (١٤٣) « أسأت ، موضعها رفع ، وان رفعتَ اقوَيْت » . أما يونس فلم يكتف بتجويز قول الفرزدق،وانما ذهب الى استجادته فقال : (١٤٤) « وهذا جيد » . أو استحسنه فقـــال : « (١٤٥) والذي قال حسن جائز » .

ويسمع أبو عمرو ويونس قول الفرزدق :

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحتا او مجـرف

فيقفان حائرين أمام الوجه الذي رفع الفرزدق عن أساسه «مجرف» من غير ان يفكرا بتخطئته أو الطعن عليه ، ويحاولان أن يجدا تخريجـــا

---

١٤١ ــ الشعر والشعراء (المقدمة) . والبيتان في ديوان الفرزدق ج ١/٢١٣ .

١٤٢ ــ طبقات فحول الشعراء ؛ ص ١٧ (مطبعة المدني ــ القاهرة) . طبقات النحويـــين واللغويين ص ٣٢ .

١٤٣ ــ خزانة الادب ج ١/٢٣٨ .

١٤٤ ــ المصدر السابق : ١/٢٣٨ وقد اورد هذا الكتاب (١/٢٣٩) ان علي بن حمزة البصري كان يقول في كتاب التنبيهات على اغلاط الرواة : والخفض في ((ريرٍ)) جيـــد ، وتقديره على زواحف ريرٍ مخّها تُزجى .

١٤٥ ــ طبقات فحول الشعراء ١/١٧ (مطبعة المدني ــ القاهرة) .

فلم يعثرا ، فيقول أبو عمرو : (١٤٦) «لا اعرف لها وجها ، وكان يونس لا يعرف لها وجها ، قلت ليونس : لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه ، فقال : لا ، كان ينشدها على الرفع وانشد فيها رؤبة على الرفع » .

ولما جاء الكسائي الى البصرة تتلمذ على أبي عمرو بن العلاء ، وتأثر به تأثرا ملحوظا،ويقال انه بقي ملازما له (١٤٧) « نحو سبع عشرة سنة»، وتتلمذ بعد ذلك على يونس بن حبيب تلميذ أبي عمرو ، وكان يونس يثني عليه في مجلسه بالبصرة ويشجعه،فقد سئل (١٤٨) بحضرته عن توجيه رفع الخمر في بيت الفرزدق : (١٤٩)

غداة أحلّت لابنِ أصرمَ طعنةٌ حصينٍ عبيطاتِ السدائفِ والخمرُ

فقيل للكسائي : على أيّ شيء رفعت ؟ فقال : اضمرت فعلاً ، كانه «وحلّت لي الخمرُ ، فقال يونس : ما احسن والله ما وجّهته — وفي رواية اخرى (١٥٠) انه قال : اشهد ان الذين رأسوك رأسوك على حق — غير اني سمعت الفرزدق ينشده :

غداة احلت لابن أصرم ضربةٌ حصينٍ عبيطاتُ السدائفِ والخمرُ

جعل الفاعل مفعولا ، كما قال الحطيئة (١٥١) :

فلما خشيت الهونَ والعَيْرُ مُمْسِكٌ على رغمه ما أمسك الحبلَ حافرُه

والقصيدة على الرفع،جعل الفاعل مفعولا ، فقال الكسائي : هذا

---

١٤٦ — المصدر نفسه ج ١/٢١ . وانظر : الموشح ص ٩٢ والبيت : ديوان الفرزدق ج ٢/٢٦.

١٤٧ — الاقتراح ، ص ٨٥ .

١٤٨ — مجالس العلماء : مجلس ١٠ .

١٤٩ — ديوان الفرزدق ج ١/٢٥٤ .

١٥٠ — تاريخ بغداد ج ١١/٤١٠ .

١٥١ — ديوان الحطيئة ص ١٨٣ (تحقيق نعمان طه الطبعة الاولى سنة ١٩٥٨) .

على هذا وجه .

وكان يونس يتجنب تخطئة الكسائي ، ويردّ قوله ردّاً لطيفا جميلا ؛ فها هو يسأل (١٥٢) في مجلسه إن أولق : ما مثاله من الفعل ؟ فيقول : أفعل؟فيقول يونس له : استحييت لك يا شيخ ! والظاهر عندنا من امر أولق انه فُوعِل؟ من قولهم : الق الرجل فهو مألوق . اما ابن أبي عيينة الذي سأله هذا السؤال فيسارع (١٥٣) بعد الاجابة الى القول : خطأ والله .

ليس هذا فحسب؟وانما كان يونس يغضب الغضب كله اذا ما أحس أن أحدا في مجلسه حاول ان يستثيره أو يعمد الى تخطئته؟ويقول : (١٥٤) تؤذون جليسنا ، ومؤدب ولد امير المؤمنين .

وقد توطدت العلاقة بين يونس والكسائي ، وتعمّقت بعد هـــذا السلوك الذي كان له أجمل الاثر في نفس الكسائي؟ولا سيما بعد المسائل النحوية التي جرت بينهما واقر له يونس فيها ، وكافاه على ذلك بأن صدّره موضعه .

ولم يكن الكسائي الكوفي الوحيد الذي درس على يونس ، وانمـــا درس عليه الفراء أيضا،وكان الكوفيون — كما يبدو من رواية ابي الطيـــب اللغوي — يفتخرون بأنه أخذ عن يونس؟فأكثر؟قال : (١٥٥) « واهل الكوفة يدّعون أنه استكثر منه ، واهل البصرة يدفعون ذلك » وهذه الرواية إن دلّت على شيء فانما تدلّ على مدى المكانة التي كان يونس يمثلها في ذهـــن الكوفيين وفكرهم .

---

١٥٢ — الخصائص ج ٢٩١/٣ .

١٥٣ — مجالس العلماء مجلس ١١٩ .

١٥٤ — المصدر نفسه مجلس ١١٤ .

١٥٥ — مراتب النحويين ص ٨٦ .

وقد كان عقل الكسائي متنبها ويقظا لكل ما كان يسمعه عن يونس من أجل أن يأخذ به ويقتفي اثره ؛ فهذا يونس بن حبيب يسأل (١٥٦) والكسائي حاضر : لِمَ صارت « حتى » تنصب الأفعال المستقبلة ؟ فيقول: هكذا خلقت . ويسأل (١٥٧) الكسائي فيما بعد في مجلس يونس عن قولهم : لاضربن أيُّهم يقوم ، لم لا يقال : أيَّهم ، فيقول أيٌّ ، هكذا خلقت .

كل ذلك دفع الكسائي والكوفيين بعده الى أن يتبعوا الاتجاه النحوي الثاني الذي سار فيه أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وهو الاتجاه الذي يعظم لغات العرب ويقبل بتجويزها مهما تباعدت ، من غير طعن أو تلحين ؛ أما البصريون فواصلوا السير على الاتجاه الاول اتجاه ابن أبي اسحق وعيسى بن عمر وهو الاتجاه الذي اتسم بالتشدد في القياس وتأويل ما يخالفه ، أو تشذيذه ، أو تخطئته اذا لم يكن بديل للتخطئة .

وقد اتبع الكوفيون يونس في آراء كثيرة خالف فيها البصريين منها تجويزه (١٥٨) أن تلقى علامة الندبة على الصفة نحو قولك « وازيد الظريفاه » بينما ذهب الخليل (١٥٩) الى ان هذا خطأ .

وتبعوه في جواز (١٦٠) ادخال نون التوكيد الخفيفة على فعل الاثنين وجماعة النسوة نحو « افعلان » و « افعلنان » بالنون الخفيفة ؛ وايد ابن جني هذا المذهب قائلا : « وليس ذلك ... بالممتنع في الحس ، وان كان

---

١٥٦ ــ طبقات النحويين واللغويين ص ١٧٧ .

١٥٧ ــ مجالس العلماء مجلس ١١٤ . وانظر : الخصائص ج٢/٣٩٢ .
واوضح المسالك ج ١/١٠٩ .

١٥٨ ــ انظر : الانصاف مسالة ٥٢ ، شرح المفصل ج ٢/١٤ ، حاشية الصبان ج ٢/١٦٩
والراي في الاصول ج ١/٤٣٦ منسوب الى يونس وحده .

١٥٩ ــ الكتاب ١/٢٢٦ .

١٦٠ ــ انظر الانصاف مسالة ٩٤ . شرح الاشموني ج ٢/٥٠٣ . شرح التصريح ج ٢/٢٠٧.

غيره أسوغ فيه منه من قِبَل ان الألف اذا أُشْبع مدّها صار ذلك كالحركة فيها » . أما البصريون فذهبوا (١٦١) الى انه لا يجوز ادخالها في هذين الموضعين .

وتبعوه في عدم (١٦٢) ضرورة عود الخافض .

وتبعوه في ان « ايّ » « (١٦٣) في نحو : لأضربن ايُّهم افضل ، معرب، ولكنه يقول إنه مرفوع بالابتداء و « افضل » خبره ، والفعل معلّق عن العمل . أما هم فيقولون إنه مفعول به منصوب، بينما يرى سيبويه انه مبني على الضم .

وتبعوه في ان الذي (١٦٤) يقع مصدرا ، كما ورد في قوله تعالى: (١٦٥) (وخضتم كالذي خاضوا) أي خاضوا فيه ، وقوله (١٦٦) (ذلك الذي يبشر عباده) اي يبشّر اللهُ به عباده .

وتبعوه في أن « وحده » (١٦٧) منصوبة على الظرف ؛ قال سيبويه (١٦٨) وزعم يونس أن وحده بمنزلة عنده » .

وبناء على كل ما مضى من أقوال وأدلة وآراء حول اثر يونس في الكسائي والكوفيين فانني استطيع القول إن تأثير يونس في هؤلاء كان

---

١٦١ ــ انظر : الانصاف مسالة ٩٤ .

١٦٢ ــ انظر : شرح التصريح ج ١٥١/٢ ، شرح الاشموني ج ٤٢٩/٢ .

١٦٣ ــ انظر الكتاب ج ٣٩٨/٢ ــ ٤٠١ . والانصاف مسالة ١٠٢ ، وجمع الهوا مع ج ١/ ٣١٢ .

١٦٤ ــ مغني اللبيب ص ٧٠٩ ، وانظر نسبة الراي الى يونس في : اعراب القرآن ج ٣١٥/١.

١٦٥ ــ التوبة آية ٦٩ .

١٦٦ ــ الشورى آية ٢٣ .

١٦٧ ــ حاشية الشيخ ياسين في شرح التصريح ج ٣/١ .

١٦٨ ــ الكتاب ج ٣٧٧/١ .

واضحا شديد الوضوح وبارزا ، بل وبناء على كل ما مضى يخيل الي انني استطيع القول ان ابن حبيب النحوي كان مؤسسا بارزا من مؤسسي المدرسة الكوفية،أو على الاقل كان مساهما مساهمة فعالة في نشأة هذه المدرسة ؛ فهو الذي فتح لها مجال السير في الاتجاه المذكور الذي كان يتجهه مع أستاذه ، من غير ان يتعارض هذا القول مع بصريته ؛ وبالتالي فلا استطيع أن اعده ممن وضعوا النواة الاولى للمدرسة البغدادية،كما ادعى (١٦٩) الدكتور أحمد مكي الانصاري ، ولعل قرب يونس من الكوفيين هو الذي دفع الانصاري الى ذلك . فالتقاء يونس بالكوفيين واثره فيهم كان قبل ان تنشأ المدرسة البغدادية وتقف على قدميها ؛ ونواة المدرسة البغدادية لا يمكن ان تكون الا بعد وجود المدرستين البصرية والكوفية،وهي المعروفة بأنها انبثقت (١٧٠) من تمازج المدرستين ، وأنها مدرسة تقوم على الانتخاب والتوفيق ، والنفاذ الى بعض ما يمكن النفاذ اليه من آراء جديدة .

د. محمود حسني محمود

---

١٦٩ ــ نحو زكريا الفراء ص ٣٦٦ .

١٧٠ ــ المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ص ١١٦ .

المصـــادر

ابن الانباري

١ ــ الانصاف ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ط الرابعـة . ١٩٦١ .

٢ ــ نزهة الالباء ــ تحقيق د. ابراهيم السامرائي . الطبعة الثانية . بغداد ١٩٧٠ .

ابن جني

٣ ــ الخصائص ــ تحقيق محمد علي النجار . دار الهدى . الطبعة الثانية . بيروت.

٤ ــ المحتسب ــ تحقيق علي النجدي ناصف . القاهرة ١٣٨٦ هـ .

ابن خلكان

٥ ــ وفيات الاعيان ــ تحقيق د. احسان عباس . دار صادر ــ بيروت .

ابن السراج

٦ ــ الاصول في النحو ــ تحقيق د. عبد السلام الفتلي . مطبعة الاعظمي ، بغداد ١٩٧٣ م .

ابن الشجري

٧ ــ امالي ابن الشجري . حيدر آباد . الطبعة الاولى ١٣٤٩ هـ .

ابن عقيل

٨ ــ شرح ابن عقيل . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ، ط الثانية عشرة ١٩٦١ م .

ابن العماد

٩ ــ شذرات الذهب ــ بيروت .

ابن قتيبــة

١٠ ــ الشعر والشعراء .

ابن النديم

١١ ــ الفهرست . مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

ابن هشام

١٢ ــ اوضح المسالك . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار احياء التــراث العربي . بيروت . الطبعة الخامسة ١٩٦٦ م .

١٣ ــ مغني اللبيب . تحقيق د. مازن مبارك . مراجعة الاستاذ سعيد الافغاني بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٢ .

ابن يعيش

١٤ ــ شرح المفصل . المطبعة المنيرية بمصر .

ابو الطيب اللغوي

١٥ ــ مراتب النحويين ــ تحقيق أبو الفضل ابر هيم . القاهرة ١٩٧٤ .

ابــو الفــداء

١٦ ــ البداية والنهاية ــ مطبعة السعادة بمصر .

الازهــري

١٧ ــ شرح التصريح على التوضيح . دار احياء الكتب العربية .

الاشموني

١٨ ــ شرح الاشموني ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعـــادة بمصر . الطبعة الاولى ١٩٥٥ .

الاعشـــى

١٩ ــ ديوان الاعشى ــ تحقيق د. محمد حسين . المطبعة النموذجية .

الانصاري : د. أحمد مكي الانصاري

٢٠ ــ أبو زكريا الفراء . القاهرة ١٩٦٤ .

بروكلمان

٢١ ــ تاريخ الادب العربي . دار المعارف بمصر . الطبعة الثانية .

البغـــدادي

٢٢ ــ خزانة الادب . تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة الحلبي .

٢٣ ــ تاريخ بغداد . مطبعة السعادة ١٩٣١ .

الجاحـــظ

٢٤ ــ الحيوان ــ تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة الحلبي .

٢٥ ــ البيان والتبيين ــ تحقيق فوزي عطوي . بيروت .

الجمحـــي

٢٦ ــ طبقات فحول الشعراء ــ تحقيق محمود محمد شاكر . مطبعة المدني . القاهرة ١٩٧٤ ، دار المعارف ١٩٥٢ م .

الحديثي . خديجة الحديثي

٢٧ ــ كتاب سيبويه وشروحه . بغداد . الطبعة الاولى ١٩٦٧ .

حسني . د. محمود حسني

٢٨ ــ المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي . رسالة دكتوراة مخطوطة في مكتبة الجامعة الاردنية قسم المخطوطات وفي مكتبة جامعة القاهرة ــ كلية الاداب ضمن الرسائل الجامعية .

الحطيئة

٢٩ ــ ديوان الحطيئة ــ تحقيق د. نعمان طه . الطبعة الاولى ١٩٥٨ .

الحموي ــ ياقوت الحموي

٣٠ ــ معجم الادباء ــ مطبعة دار المامون . الطبعة الاخيرة .

٣١ ــ معجم البلدان . بيروت ١٩٥٦ .

الداودي . الحافظ شمس الدين

٣٢ ــ طبقات المفسرين ــ تحقيق علي محمد عمر . مطبعة الاستقلال الكبرى . الطبعة الاولى ١٩٧٢ م .

الرضي

٣٣ ــ شرح الكافية . الشركة الصحافية العثمانية ١٣١٠ هـ .

الزبيدي

٣٤ ــ طبقات النحويين واللغويين . تحقيق ابو الفضل ابر هيم . دار المعارف بمصر .

الزجاج

٣٥ ــ اعراب القرآن ــ تحقيق ابر هيم الابياري . القاهرة ١٩٦٣ م .

الزجاجي

٣٦ ــ مجالس العلماء ــ تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٦٢ م .

الزمخشري

٣٧ ــ المفصل . دار الجيل . الطبعة الثانية .

سيبويه

٣٨ ــ الكتاب ــ تحقيق عبد السلام هارون

ج ١ دار القلم ١٩٦٦

ج ٢ دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٨ م .

ج ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م

ج ــ ٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م .

السيرافي

٣٩ ــ اخبار النحويين البصريين ــ تحقيق طه الزيني . الطبعة الاولى ١٩٥٥ م .

السيوطي

٤٠ ــ الاشباه والنظائر ــ تحقيق طه سعد . طبعة جديدة ١٩٧٥ م .

٤١ ــ الاقتراح في اصول النحو . حيدر آباد . الطبعة الثانية ١٣٥٩ هـ .

٤٢ ــ بغية الوعاة . تحقيق ابو الفضل ابر هيم . ط الاولى ١٩٦٥ .

٤٣ ــ همع الهوامع ــ تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٧٥ م .

الصبان

٤٤ ــ حاشية الصبان . دار احياء الكتب العربية .

ضيف . د. شوقي ضيف

٤٥ ــ المدارس النحوية . دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م .

عزام . عبد الرحمن عزام

٤٦ ــ بطل الابطال . مطبعة الحلبي . الطبعة الاولى ١٩٣٨ م .

عيد . د. محمد عيد

٤٧ ــ الرواية والاستشهاد باللغة . القاهرة ١٩٧٢ م .

الفرزدق

٤٨ ــ ديوان الفرزدق . دار صادر . بيروت ١٩٦٠ م .

القفطي

٤٩ ــ انباه الرواة ــ تحقيق ابو الفضل ابر هيم . مطبعة دار الكتب . القاهرة ١٩٧٣م.

المبــرد

٥٠ ــ الكامل في الادب ــ تحقيق د. زكي مبارك . مطبعة الحلبي الطبعة الاولى ١٩٣٧ م .

المرزباني

٥١ ــ الموشح . المطبعة السلفية . القاهرة الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ .

ناصــف . علي النجدي ناصف

٥٢ ــ سيبويه امام النحاة .

ياسين

٥٣ ــ حاشية الشيخ ياسين (ضمن شرح التصريح للازهري ــ دار احياء الكتب العربية) .